حقيقة الدنيا

وأصناف الناس يوم القيامة

خطبة ألقاها

الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

يوم ١١ ربيع الآخر ١٤٣٩ بمدينة أمستردام في هولندا

[الخطبة الأولى]

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

أمّا بعد: فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، ثم يا عباد الله:

إن الله عزوجل خلقكم من العدم، وربّاكم بالنعم، لأمر عظيم، وحكمة عُليا، فلم يخلُقكم عبثاً، ولم يترُككم هملاً، وإنما خلقكم لتعبدوه، وأرسل إليكم الرسل لتَحذروا، يقول الله عزوجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل:٣٦]، فجاءت رسل الله جميعاً مبشّرةً ومنذرةً، آمرةً بالتوحيد، وبطاعة الله سبحانه وتعالى.

وجعل لكم ربّكم حياتين، حياةً أولى، وحياةً أخرى، وجعل في حياتكم الأولى زِينًا، وملذّاتٍ، ومشتهياتٍ، يختبركم بها ربكم سبحانه وتعالى، وجعل في الآخرة نعيماً مقيماً لأهل الطاعة، فأعدّ في جنته للمؤمنين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وجعل الدنيا دار عمل، وقد يكون فيها شيء من الجزاء، وجعل الآخرة دار الجزاء –يا عباد الله–.

فمِن عباد الله من عرف للدنيا قدرها، وعلم أنها مزرعة للآخرة، فعمّرها بما لا يُضِيع دينه، وقدّم الآخرة على الأولى، فكان في الدنيا من السعداء، وكان في الآخرة من الفائزين، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [النبأ:٣١].

ومن الناس من غفل عن حقيقة الدنيا، ولها بها عن الآخرة، فكان حاله كما قال الله ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر:١-٤].

وإن ربكم الرحيم –يا عباد الله– قد بيّن لكم حقيقة الدنيا، فوعظكم، وزجركم عن الاغترار بالدنيا، فقال الله ﷻ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٥-٤٩].

الله أكبر يا عباد الله! بيّن الله لكم غاية البيان، وحذّركم من الاغترار بالدنيا، وبيّن لكم ما وراءها، يقول الله ﷻ مخاطباً نبيه ﷺ –والخطاب يكون لمن بعد النبي ﷺ من العلماء والوعّاظ–: اضرب لهم –يا رسولنا– ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ –ليتفكروا، وليعقلوا، وليرجعوا إلى ربهم– ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فما مثل الحياة الدنيا –يا عباد الله– إلا كمثل المطر ينزل على الأرض، فتُخرج نباتها، وتُظهر زرعها، وتخضرّ وتسرّ الناظرين، وما هو إلا وقت يسير حتى ييبس الزرع، ويتهشّم ويتكسّر، ويصبح تذروه الرياح في كل مكان، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

هذا –يا عبد الله– هو مثل الحياة الدنيا كلها، فهي –وإن طالت– والله إلى الفناء صائرة.

وهذا –يا عبد الله– مثلك في الحياة الدنيا، فإنك تُولَد ضعيفاً، وتنمو وتقوى، ثم يأتيك الموت –ولا شك في هذا–.

وهذا -يا عبد الله- مثل ما قد تحصّله في الدنيا، فإن العبد قد يجمع المال فوق المال، ويجتمع عنده المال، ثم فجأة ينزل به أمر عظيم، وتنزل به نازلة، فيذهب المال كله.

وهكذا الولد، قد يولد للعبد ولد، فيراه ويرجو حياته، ويظن أنه يعيش بعده، فيشاء الله فيموت هذا الولد، وكل حيّ دون الله عز وجل لا بد أن يموت، ولا بد أن يفنى -يا عباد الله-، والله القادر على الأرض ونباتها قادرٌ عليكم -يا عباد الله-.

ثم بيّن لكم ربكم أن في الدنيا زينة، وأنه لا ينفع من زينتها إلا ما أحسن فيه الإنسان، فكان من عمله الصالح.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ -الطاعات والخيرات والبركات- ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ -خير من الدنيا وما فيها، خير مما يجمع الناس- ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾، فخيرُ أملٍ يتأمّله الإنسان هو أن يقدّم الأعمال الصالحة، ويحسن الظن بربه، ويأمل من الله أن يرحمه، وأن يتفضّل عليه بذلك بدخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والأمر كما قال النبي ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي! وليس له من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى» -أي تصدق فأبقى له يوم القيامة، فكان عملاً صالحاً- «وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس».

وكما قال النبي ﷺ: «يتبَع الميتَ ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى واحد منهم، يتبَعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»، فلا ينفع الإنسان إذا قامت قيامته إلا ما قدّمه لوجه الله سبحانه وتعالى.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾، ثم تقوم القيامة -ولا بد من قيامها-.

والقيامة نوعان:

- قيامة صغرى
- وقيامة كبرى.

أما القيامة الصغرى: فبالموت -يا عباد الله-، فمن مات قامت قيامته.

وأما القيامة الكبرى: فحين يُنفخ في الصور، فيُصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم يبقَون ما شاء الله، ثم يُنزِل الله عز وجل ماءً من السماء، فينزل على الأرض، ويصل إلى عجْب الذَّنَب، الذي لا يَبلى من الإنسان، فينمو الإنسان كما خُلق أول مرة، ويُحشر إلى ربه سبحانه وتعالى.

هناك عند قيام الساعة تُنسَف الجبال نسفاً، ويراها الناس، يحسبونها جامدةً، وهي تمرّ مرّ السحاب، فيذرها ربّنا قاعاً صفصفاً، وترى الأرض بارزةً ظاهرةً لا يحول بين الإنسان والرؤية فيها جبال، ولا أبنية، ولا أشجار.

وهناك -يا عباد الله- تكون الحقيقة الكبرى، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ -حُفاةً، عُراةً، غُرلاً، ويخاطَب المكذِّبون: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، بل ظننتم -أيها المكذّبون- أنا لن نجعل لكم موعداً.

وهناك -يا عباد الله- يوضع الكتاب في يد كل إنسان، فمن الناس من يوضع كتابه في يمينه، فذاك المسرور، الذي يحاسب حساباً يسيراً، ومن الناس من يوضع كتابه في شماله، فيُعطى كتابه من وراء ظهره بشماله، فذاك الخاسر الذي سيدعو ثبوراً، ويَصلى سعيراً.

الله أكبر يا عباد الله! ما أعظمها من موعظة لو كنا نعقل المعنى، ونتدبر قول ربنا سبحانه وتعالى!

ألا فيا عباد الله، لينظُر كل واحد منا في نفسه، وليراجع عمله، فإن وجد أنه مطيع لله عز وجل، مجتنب لما حرّم الله عز وجل، فليحمد الله، وليسأل الله الثبات، وليزدد خيراً، وليزدد قُرباً، وإن وجد غير ذلك -ولا بد أنه واجد-، فالأمر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون»، فعليه أن يبادر بالرجوع إلى الله عز وجل، وليَتُب إلى الله عز وجل صادقاً، فيُقلع عن ذنبه، ويندم على ما وقع منه، ويعزم على ألا يرجع إليه، وإن كان الحق لآدمي من الأمور الحسية ردّه إليه، وإن كان من الأمور المعنوية استحلّه منه إن كان ذلك قد علم بفعله وقوله، أما إذا كان لم يعلم بفعله وقوله، وخشي من إخباره واستحلاله مفسدة كبرى، فإنه يكفيه أن يدعو له، وأن يُثني عليه بخيرٍ مما هو فيه، فإذا تاب إلى الله فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإن الله يفرح به إذا أقبل عليه.

ألا فاتقوا الله عباد الله، وتأملوا في أحوالكم، وارجعوا إلى ربكم لعلكم تفلحون.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فيا عباد الله:

اعلموا أن الناس يكونون يوم القيامة على أقسام، فمن الناس من لا يحاسَب ولا يعذَّب، إنهم أناس قد كمّلوا توحيدهم، وعظمت تقواهم لله عز وجل، وعظم خوفهم من الله عز وجل، فكان جزاؤهم الأمن التام يوم القيامة، فلا حساب ولا عذاب، إنهم قوم من كمال إيمانهم لا يتطيّرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكّلون.

ومن الناس -يا عباد الله- من يحاسب حساباً يسيراً، فيُعرض عليه عمله، حيث يُدني عليه الرحمن كنفَه، فيقرّره بذنوبه؛ أعملتَ كذا؟ أعملتَ كذا؟ حتى إذا أقرّ بها، قال الرحيم الكريم سبحانه وتعالى: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.

إن هؤلاء -يا عباد الله- أقوام ما كانوا يجاهرون بمعاصيهم، بل كانت أفعالهم مستورةً عن الناس، من خوفهم من ربهم سبحانه وتعالى، كانوا -وإن وقعوا في المعصية- لا يجاهرون بمعاصيهم، فكان جزاؤهم الحساب اليسير، بالعرض عرضاً بينهم وبين ربهم سبحانه وتعالى، ويكون الشأن: يقول لهم ربهم: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.

ومن الناس من يُناقَش الحساب، ويُناقَش في أعماله، ومن نوقِش الحساب يوم القيامة عُذِّب -كما ثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم-، وفي رواية: «من نوقش الحساب هلك»، نعوذ بالله من سوء الحال.

ومن الناس من يُفضح فضحاً على رؤوس الخلائق: إنهم الكفار، والمنافقون، وبعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يُفضحون أمام الخلائق يوم القيامة، كالغادرين الذين يغدرون بالناس، ولا يفون بعهودهم، فإنهم يُفضحون يوم القيامة بأن يُنصب لكل غادر لواء، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان، وكالذين لا يعدلون بين زوجاتهم، حيث يأتي المخذول وشقّه مائل، وكالذين يغصبون الأراضي من أهلها، حيث يأتي المخذول وقد طُوّق من سبع أراضين في عنقه، فيُفضح أمام الناس -عياذاً بالله من سوء الحال-.

وإن من الناس من يكون كمن أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال: «يؤتى برجل فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيُعرض عليه صغار ذنوبه، ويقال له: أتذكر كذا؟ أتذكر كذا؟ وهو مقرّ بها، ومشفق من كبائر ذنوبه، حتى إذا فُرغ من تقرير صغار ذنوبه، قال الله عز وجل: اجعلوا له مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يا رب، إن لي ذنوباً لم أرها»، لما رأى من كرم الله عز وجل.

ومن الناس من يؤتى به يوم القيامة وقد استُشهد، وقُتل في جهاد، فيذكَّر نعم الله عز وجل عليه، فيَعرفها، فيقول: ما عملتَ فيها؟ فيقول: قاتلتُ في سبيلك حتى استُشهدت، فيقال: كذبتَ، وإنما قاتلت ليقال: هو جريء، وقد قيل، ثم أُمر به، فسُحب حتى ألقي على وجهه في النار.

ويؤتى بالرجل قد تعلّم العلم، وقرأ القرآن، فيعرّفه نعمه، فيَعرفها، فيقال: ما عملت فيها؟ فيقول: تعلّمت العلم، وقرأت فيك القرآن، فيقال: كذبتَ، وإنما تعلّمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، وقد قيل، ثم أُمر به، فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ويؤتى بالرجل وقد أعطي من أنواع المال، فيُعرّفه نعمه، فيَعرفها، فيقال: ما عملتَ فيها؟ فيقول: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفَق فيه إلا أنفقتُ فيه، فيقال: كذبتَ، وإنما أنفقتَ ليقال: هو جواد، وقد قيل، فأُمر به، فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار.

فيا عباد الله، علمتم أصناف الناس يوم القيامة، فارحموا أنفسكم بالإقبال على الله عز وجل، مخلصين لله سبحانه وتعالى، ومتّبعين لرسوله ﷺ، لعلكم ترحمون.

ثم اعلموا -عباد الله- أن الله عز وجل أمركم بالصلاة والسلام على رسول الله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقال النبي ﷺ: «من صلى عليّ واحدةً صلى الله عليه عشراً».

وقال ﷺ: «من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه عشر صلوات، وحطّ عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات.

وقال ﷺ: «ما من عبد يصلي عليّ إلا صلت عليه الملائكة، ما دام يصلي عليّ».

فمن أشرف أقوالكم، وأزكى كلامكم: أن تُكثروا من الصلاة والسلام على حبيبكم ﷺ، فأكرموا أنفسكم بهذه المنقبة، وأدّوا حق نبيكم ﷺ.

فاللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وسلّم تسليماً كثيراً.

وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، وارضَ اللهمّ عن الصحابة أجمعين، اللهمّ وارضَ عنّا معهم بمنّك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم ارضَ عنا وأرضِنا، اللهمّ ارضَ عنا وأرضِنا، اللهمّ ارضَ عنا وأرضِنا.

اللهمّ تقبّل أقوالنا وأعمالنا، اللهمّ تقبّل أقوالنا وأعمالنا، اللهمّ تقبّل أقوالنا وأعمالنا.

اللهمّ إنا عباد ضعفاء، مذنوبن مسرفون، قد اجتمعنا في بيت من بيوتك، نؤدي فريضة من فرائضك، نرجو رحمتك التي وسعت كل شيء، ونخاف عذابك، اللهمّ فارحمنا أجمعين، وأمِّنَّا مما نخاف يا رب العالمين.

اللهمّ اغفر لنا، ولوالدينا، ولأهلنا، ولأحبابنا أجمعين يا رب العالمين.

اللهمّ رحمتك نرجو، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأصلح لنا شأننا كله، لا إله إلا أنت.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.

وقوموا إلى صلاتكم بارك الله فيكم.